قيام الدولة العثمانية

أولاً- نشوء الدولة العثمانية:

من هم العثمانيون، وكيف استطاعوا إنشاء دولة استمرت لأكثر من ستة قرون وضمت مساحات واسعة من أوروبا وآسيا وإفريقيا؟

امتد التاريخ العثماني، منذ نشأة دولة بني عثمان وحتى انهيارها، على مسافة زمنية دامت لأكثر من ستة قرون، حكمت خلالها العالم العربي لما يزيد على أربعة قرون منها.

تعاقب على حكم هذه الدولة سبعة وثلاثون سلطاناً، بدءاً من عثمان، الذي تولى الحكم سنة ١٢٩٩، وانتهاءً بعبد المجيد الثاني، آخر خلفائها وسلاطينها في الوقت نفسه، والذي تولى الحكم سنة ١٩٢٢ ثم خُلع عنه خلعاً، وذلك بعد إلغاء الخلافة ونفي الأسرة العثمانية من الأراضي التركية، إثر قرار المجلس الوطني الكبير في تركيا في ٢٤ آذار من عام ١٩٢٤، ليرتبط تاريخ تركيا بعهد جديد تمثل باسم مصطفى كمال، الذي خلع على نفسه لقب أتاتورك أي أبو الأتراك.

وقد تعرض التاريخ العثماني للإهمال بوجه عام حتى النصف الأول من القرن العشرين، حيث تعددت الآراء حول هذه الدولة من حيث نشوئها وتوسعها ثم انهيارها:

فالدولة العثمانية، من وجهة نظر المؤرخين الأوربيين، كانت بالنسبة لأوربا مشكلة كبرى، فقد اعتبروها، مرة، ممثلة لرد الفعل الإسلامي ضد الخطر الصليبي ونسبوا إليها اعتراض المشروعات الاستعمارية الأوربية، وحين ضعفت أثارت ما عُرف باسم "***المسألة الشرقية***" وظل الأوربيون ردحاً من الزمن يعتبرونها العدو الأكبر للمسيحية، ووصمة سوداء تلطخ قيم الحضارة الأوربية.

ومن جهة أخرى، فقد اعتبرها عدد كبير من مؤرخي الدول العربية الحديثة دولة أجنبية عرقلت قيام النظم السياسية الحديثة في بلادهم ونسبوا إليها أسباب الانحطاط العربي، أما البعض الآخر من المؤرخين العرب فقد دافعوا عنها واعتبروها دولة الخلافة وفرسان الجهاد رمز قوة الإسلام ومجده، ونظروا إليها على أنها نهاية لازدهار الحضارة الإسلامية الكبرى.

ولكن الدراسات الوثائقية الكثيفة في العقود الأخيرة تظهر لنا عالم عثماني "***لا ينتمي إلى صنف الشياطين الأشرار، ولا إلى صنف الملائكة الأطهار***"، إنه تاريخ ككل تاريخ، بكل أزماته ومصاعبه وفتوحاته وإخفاقاته ونجاحاته الباهرة وانكشاريته التي يؤخذ عليها ظلمها، مع أن فتوحاتها ومعاركها عل جميع الجبهات كانت مدوية.

سنحاول من خلال محاضرتنا عن تاريخ الدولة العثمانية، التطرق إلى نشأة الدولة العثمانية ومراحل تطورها، ثم سنتكلم عن النظم العسكرية العثمانية ودورها في بناء هذه الدولة وتوسعها.

يميل المؤرخون إلى تقسيم مراحل تاريخ الدولة العثمانية إلى خمسة أدوار أو حقب تاريخية:

الحقبة الأولى: وتمتد مابين عامي ١٢٩٩-١٤٠٢، وتشمل ميلاد الدولة العثمانية وفتوحاتها الأولى في أوروبا وآسيا، وتمتد من النشوء إلى غزو تيمورلنك التتري لها وانحلالها المؤقت.

الحقبة الثانية: (١٤٠٢-١٥٦٦)، وخلالها عادت الدولة إلى بناء نفسها، والتوسع السريع في أوروبا وآسيا، وإفريقيا، وقضت على الدولة البيزنطية وضمت الجزء الأكبر من الأقطار العربية وبلغت أوج توسعها.

الحقبة الثالثة(١٥٦٦-١٧٠٣) وفيها شهدت السلطنة حالة من الجمود والترهل أدى إلى فقدانها جزء كبير من ممتلكاتها وبداية مرحلة الانحطاط الطويلة.

الحقبة الرابعة(١٧٠٣-١٨٣٩) وأهم مميزات هذه المرحلة بروز ما يعرف باسم المسألة الشرقية.

الحقبة الخامسة(١٨٣٩-١٩٢٤) وهي مرحلة الانحطاط والسقوط ونهاية السلطنة العثمانية وقيام الدولة التركية الحديثة.

أ- الحقبة الأولى: نشأة الدولة العثمانية وتوسعاتها الأولى ١٢٩٩-١٤٠٢

استمد المؤرخون معلوماتهم عن نشأة العثمانيين من المصادر العثمانية، والتي هي في غالبيتها شبه أسطورية، واختلط فيها الخيال بالواقع إلى حد حجب معه كثيراً من الحقائق الأساسية. وترجع تلك المصادر أصول الدولة العثمانية إلى قبيلة تركمانية، يقدر عددها بخمسين ألفاً، هاجرت من جنوبي بلاد ما وراء النهر، تحت ضغط زحف المغول بقيادة جنكيز خان، ونزلت عند المجرى الأعلى لنهر الفرات بين أرزنجان وخلاط (على بحيرة وان) شرقي آسيا الصغرى، حوالي عام ١٢٩٩م.

وكان على رأس هذه القبيلة رجل يدعى سليمان وهو، بحسب الرواية، والد أرطغرل وجدُّ عثمان الذي نُسبت الدولة العثمانية إليه. وتربط الرواية سليمان هذا في نسبه الأول بأوغوزخان وقومه الغزّ، الذين كانوا أصحاب قوة وبأس وانتشروا في آسيا الغربية في القرن العاشر للميلاد.

****ومن الملاحظ محاولة العثمانيين لاستجرار ماضٍ مجيد لهم، فاستعاروا اسم سليمان بن قتلمش السلجوقي، والذي أرسله أقاربه سلاجقة بغداد في الربع الأخير من القرن الحادي عشر إلى الأناضول لتنظيم القبائل التركية الغازية، ويبدو أن جعله حاكماً على ماهان يقصد منه ربط اسمه باسم أبي مسلم الخراساني الذي ولد فيها.***

وبعد وفاة جنكيز خان حاولت القبيلة التركية المهاجرة العودة إلى وطنها الأصلي جنوبي بلاد ما وراء النهر، ولكن وإثناء عودتهم غرق زعيمهم سليمان في نهر الفرات قرب قلعة جعبر السورية عام ١٢٣١م. مما أدى لانقسام القبيلة على نفسها، فقسم منها عاد إلى موطنه الأصلي، وقسم هاجر إلى بلاد الشام، وقسم ثالث بقي في آسيا يعيش حياة رعي وتنقل.

وتظهر الرواية التركية أرطغرل، وهو أحد أبناء سليمان الأربعة، زعيما للجماعة التي قررت البقاء في آسيا الصغرى.

**** من الملاحظ أن هرب قبيلة عثمان، بفعل الضغط المغولي في القرن الحادي عشر، كان جزءاً من ظاهرة عامة شملت العديد من القبائل التركمانية، هرباً من المغول، حيث لجأت هذه القبائل إلى مناطق الثغور المشهورة عند طوروس والفرات، والتي كانت تشكل فاصلاً بين العرب والبيزنطيين، وقد أدى التدفق السكاني التركي إلى هذه المنطقة إلى النشاط في مناطق الثغور،*** **ولاسيما بعد اقتراب المغول من مناطق الأناضول في النصف الأول من القرن الثالث عشر، والذي أدى إلى تدفق قبائل تركمانية عديدة، فزاد من قدرة المجاهدين (الغزاة).**

وقد توزعت إمارات الغزاة في الأناضول في ثلاثة مناطق:

الأولى: في الجنوب حول أنطالية، في كيليكية، وهي موجهة ضد أرمينية الصغرى، وجزيرة رودوس وقبرص وشملت إمارة كرمان، التي حلت محل سلاجقة الروم، التي سقطت بيد المغول سنة ١٣٠٨.

أم الثانية: ففي الغرب على الإمبراطورية البيزنطية، بين قسطموني شمالاً ودينزلي جنوباً، مروراً بكوتاهية، وتشمل إمارتي صاروخان وقره صي، شمال إيدين.

ووجدت الثالثة: في الشمال على سواحل البحر الأسود، حيث استقرت إمارة عثمان، مقابل إمبراطورية طرابزون، والتي يحكمها فرع من البيزنطيين، وكانت تتمتع بحكم شبه ذاتي، بالرغم من اعترافها بسيادة السلاجقة.

****ومن الطبيعي أن تقسيم الأناضول بين هذه الإمارات تسبب في إضعافه، وتسهيل التدخل الأوربي فيه، إلا أن هذه الأخيرة كانت منشغلة بحروب المائة عام (١٣٣٧-١٤٥٣)، كما أن سيطرة إمارة عثمان واشتداد قوتها حال دون تدخل أوربا فيها.***

وجدير بالذكر أن عهد **عثمان** (١٢٨٩-١٣٢٦) أعتبر عهد تأسيسي أولي للدولة العثمانية حيث تميز بثلاثة أمور أساسية:

أولاً- تم توسيع حدود الإمارة بضم عدد من المدن والحصون إلى الإقطاع السابق عبر حروب جهادية حارة ومستمرة ضد البيزنطيين،حيث استطاع عثمان السيطرة على المنطقة الممتدة

من أسكي شهر وسهول نيقية وبورصة، وفي عام ١٣٠١ حاصر نيقية، عاصمة البيزنطيين السابقة، ومن هنا أتت شهرته بين مجاهدي الثغور وخوف البيزنطيين منه، وخاصة عندما اعترف سلطان سلاجقة الروم ومنحه لقب بك (*Bey*). وقد استفاد العثمانيين من تدفق العديد من المسلمين المجاهدين من كل القبائل التركية في آسيا الوسطى. وكان كل نصر يحرزه العثمانيون يشجع الإمارات الأخرى للوفود والمشاركة بالجهاد، فقويت بذلك إمكاناتها العسكرية، وازدادت اندفاعا ونجاحاً.

ثانياً– انتهت حالة التبعية العثمانية للسلطان السلجوقي، فقد قضى المغول نهائياً على دولة سلاجقة الروم حوالي عام ١٣٠٠م. ولم يحاولوا، أي المغول، تمديد توسعهم باتجاه الإمارة العثمانية، حيث غدا عثمان أميراً مستقلاً عن كل تبعية.

ثالثا– استفاد العثمانيون في هذه المرحلة من **منظمات الأخية:** حيث كان التجار والصنّاع في الأناضول منتظمين في ما يشبه النقابات تسمى الأخية (وتعني بالتركية الكريم) حيث يتعاون فيها أصحاب المهنة الواحدة للدفاع عن مصالحهم. واتخذت هذه الرابطة مظهراً تعاونياً وعسكرياً، ولجأت إليها الإمارات الجهادية طلباً لدعمها، وخاصة بعد أن شهدت ازدهاراً واضحاً بفضل المميزات التي تمتعت بها، إضافة إلى أن وقوعها أمام القسطنطينية أدى إلى تدفق المجاهدين إليها باستمرار فأخذت تتوسع ببطء في وجه المقاومة البيزنطية. حيث رعى عثمان هذه الأخيات واستفاد منها، حيث استخدم المجاهدين في هذه المنظمات في توسعاته، والباقين منهم في النشاط الاقتصادي.

وفي عهد **أورخان (١٣٢٦–١٣٦٢)**، ابن عثمان وخليفته، احتل العثمانيون بورصة(عام ١٣٢٦)، ونيقية(عام ١٣٣١)، وباحتلالهم إمارة قره صي(١٣٤٧)، أصبحوا سادة المنطقة المواجهة لأوربا.

وكان كل انتصار للعثمانيين يأتي إلى صفوفهم بغزاة آخرين. حيث ازدادت الإمكانات العسكرية لإمارتهم بأكثر مما تتحمله مواردها أو مساحتها، فتحتم عليهم متابعة الغزو لإشغال الغزاة، ولما كان مجال ذلك أصبح صعباً في الأناضول، لوقوع معظم المناطق في أيدي الغزاة الآخرين، ولتعزيز البيزنطيين الدفاع عن الرقعة الصغيرة المتبقية لهم، لذلك تطلعت إمارة عثمان إلى التوسع في أوربا، وخاصة أن علاقة أورخان بالإمبراطور البيزنطي **يوحنا السادس كانتا كووزيتورس** كانت حسنة جداً، حيث طلب منه الأخير المساعدة ضد منافسه **يوحنا الخامس باليولوغوس** ، حيث انتقل سليمان بن أورخان إلى تراقية على سفن بيزنطية لمساندة الإمبراطور في عام ١٣٤٥م. وفي العام التالي توطدت العلاقات بين الطرفين بزواج أورخان من ابنة الإمبراطور

البيزنطي، واستطاع العثمانيون خلال هذا الوقت احتلال مراكز إستراتيجية في أرخبيل **غاليبرلي** ، والتي تتحكم بالمواصلات البحرية بين الأناضول وتراقية، ورفضوا التخلي عنها، رغم احتجاج حلفاءهم البيزنطيين. كما عقدوا اتفاقية مع جنوة عام ١٣٥٤، مما فتح مجال التوسع العثماني في البلقان وأوربا.

واستطاع العثمانيون في عهد مراد الأول ابن أورخان(١٣٦٢-١٣٨٩)، انتزاع اعتراف الإمبراطور البيزنطي وحكام البلقان بتبعيتهم للدولة العثمانية، فقد تمكن مراد الأول بعد أن جعل أدرنة عاصمة له، أن يخضع تراقية كلها ومقدونيا وأحتل صوفيا وأخترق بلاد الصرب، مستفيداً من ضعف دول البلقان نتيجة الخلافات التي دبت بينهم، ونقمة الفلاحين على الإقطاعيين فيها وترحيبهم بالعثمانيين. كما سعا مراد للتوسع في الأناضول حيث استولى على أنقرة، والتي كانت مركزا سياسيا واقتصاديا هاما، وكان هذا بداية التوسع العثماني في العالم الإسلامي. وجوبه مراد الأول على الأراضي الأوروبية بتحالف بلقاني من الصرب والبلغار، حيث انتصر عليهم في معركة قوصوه(١٥ حزيران ١٣٨٩) بين الطرفين.

ومع نهاية القرن الرابع عشر استطاع العثمانيون الاستيلاء على معظم الممتلكات البيزنطية في أوربا، باستثناء القسطنطينية، كما احتلوا بلغاريا وقسماً من صربية والبوسنة، كما توغلوا في هنغاريا، وهزموا جيشاً أوربياً يضم ملك هنغاريا وحفيد ملك فرنسا نيقوبوليس في بلغاريا عام ١٣٩٦، بقيادة بيازيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢) والذي لقب على إثرها بالصاعقة.

واستغل العثمانيون انتصاراتهم في البلقان للتوسع في الأناضول، فقد كان هذا التوازن في الفتوحات ملازماً للدولة العثمانية طيلة وجودها، فكل توسع في البلقان وازاه توسع آسيا، لتدعيم قاعدتهم الأسيوية الإسلامية. كما اتبع العثمانيون، إلى جانب الحرب، أساليب أخرى لضم إمارات الغزاة في الأناضول، كالتزاوج من أسرها الحاكمة أو شراء أراضيهم أو منحهم بدل عنها إقطاعات في البلقان.

ولكن الأمير بيازيد الأول عزم على القضاء على أمراء الغزاة المتمردين، وأدى احتلاله للإمارات المسلمة إلى أزمات في الدولة العثمانية كادت أن تقضي عليها، ومحاولة منه لإضفاء الشرعية على مهاجمته لهذه الإمارات طلب من الخليفة العباسي المقيم في مصر، أن يمنحه لقب سلطان الروم(على الرغم من أنه يتمتع بسمعة أعظم بكثير من هذا اللقب)، وقام الخليفة بمنحه اللقب عام ١٣٩٤م.

كما حاول بيازيد الأول فتح القسطنطينية، حيث أرسل جيشاً لحصارها، لكنه فشل واضطر لرفع الحصار، بسبب ظهور الغازي تيمورلينك في الفترة مابين ١٤٠٠-١٤٠٢، والذي خشي من

التوسع العثماني في الأناضول واحتمال تحالفه مع المماليك ضده فقام، بعد احتلال دمشق، بمهاجمة الجيش العثماني قرب أنقرة في ٢٨ تموز عام ١٤٠٢ حيث هزمه وأسر بيازيد الأول، والذي انتحر في العام التالي، وبعد هزيمة العثمانيين، قام تيمورلينك بإعادة إمارات الغزاة إلى سابق عهدها، ولم يبدِ رغبة بدمج الأناضول بدولته، لانشغاله بقتال المماليك، فبقيت ممتلكات العثمانيين في أوربا وآسيا بيد أولاد بيازيد الأول.

ب- *الحقبة الثانية: إعادة البناء والتوسع* (١٤٠٢-١٥٦٦)

عمل العثمانيون بعد نكبة أنقرة على إعادة بناء دولتهم، واستعادة قوتهم، حيث تعرضوا في بداية هذه الحقبة لحرب أهلية كان أبطالها أبناء بيازيد الأربعة الطامعين بالعرش، وانتهى الصراع الأخوي عام ١٤١٣ بانتصار **محمد بن بيازيد الأول(١٤١٣-١٤٢١)** على إخوته وتسلمه عرش السلطنة وتثبيت مفهوم وحدة السلطنة حيث اتخذ من ادرنة عاصمة دائمة للسلطنة، واستطاع أن يلم شعث الإمبراطورية العثمانية السابقة وأن يعيد لها الحياة.

ويعد السلطان **محمد الثاني(الفاتح)(١٤٥١-١٤٨١)** من أشهر سلاطين هذه الفترة وكان من أهم أهدافه فتح القسطنطينية والتي مهد لها بمجموعة من الإجراءات:

أولها وأخطرها إصدار قانون يبيح للسلطان قتل إخوته، منعاً للاضطرابات الداخلية التي قد يسببها طمع الإخوة بالعرش، فقام بقتل أخاه أحمد الذي كان من الممكن أن ينافسه على السلطة، وغدت فعلته هذه قاعدة اتبعها سلاطين بني عثمان حتى عام ١٥٩٥م. حيث كان كل سلطان يقضي على إخوته، ولا يبقي أحداً ينازعه العرش.

كما عقد اتفاقيات مع جمهوريتي جنوة والبندقية ومع فرسان القديس يوحنا في رودوس ليتفرغ لحملة القسطنطينية وليعزل الإمبراطور البيزنطي عن إيجاد أي حليف. كما فرض حصارا شديدا على القسطنطينية، وهيأ معدات الحصار والقتال، فصب مدافع كبيرة سميت بالمدافع الملكية.

وحاصر محمد الفاتح المدينة مدة ٥٤ يوما، ثم هاجمها من الشمال والغرب، وأخيراً وفي ٢٩ أيار من عام ١٣٥٣م. تمكن من فتح المدينة، وجعلها عاصمة العثمانيين.

وكان لسقوط القسطنطينية دوي هائل في أوروبا، فقد هوت بسقوطها الإمبراطورية البيزنطية، والتي ناجزت المسلمين العداء والحرب ما يقارب الثمانية قرون. ولم يعد الخطر التركي الإسلامي خطرا محدودا إنما خطرا مستفحلا، يهدد أوروبا بأجمعها. ورأى بعض المؤرخين في سقوط القسطنطينية منعطفاً تاريخياً هاماً، فنظروا إليه على أنه نهاية العصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة. ورفع فتح القسطنطينية السلطان محمد الثاني، والذي لقب بالفاتح، في أعين المسلمين، فرأوا فيه بطلاً إسلامياً مرموقاً، ومن أكبر السلاطين الحكام في العالم الإسلامي آنذاك.

صراع الإخوة

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح شهدت الدولة العثمانية عدد من الاضطرابات تمثلت في الصراع بين ولديه جم أو كما يسميه المؤرخون العرب جمجمة وبيازيد إذ ادعى كل منهما أحقيته بالعرش دون أخيه. وفي الحقيقة كانت حرباً للحفاظ على وحدة السلطنة التي طالب جم باقتسامها مع أخيه، حيث أعلن نفسه سلطاناً في بورصة، وسك نقوداً باسمه. إلا أنه أمام إخفاقه العسكري، هرب إلى مصر، ومنها إلى رودس، وحدثت له بعد ذلك أحداث كثيرة، فالقوى المسيحية في الغرب، كانت حريصة على إيوائه كي تستخدمه وسيلة ضغط على السلطان بيازيد، طالما أنه كان له أتباع كثيرون داخل السلطنة. وانتهت حياته مسموماً، بعد أن وقع أسيراً في يد ملك فرنسا إثناء حرب هذا الأخير في إيطاليا عام ١٤٩٩.

ونكتفي بهذا القدر من الحقبة الثانية لننتقل إلى النظم العسكرية العثمانية والتي كان لها دوراً بارزاً في قيام وانهيار هذه السلطنة وهي عنوان محاضرتنا القادمة.

ثانياً- النظم العسكرية العثمانية

تتناول النظم العسكرية العثمانية: الجيش والانكشارية والأسطول العثماني.

أ – الجيش:

قد كان آل عثمان في بادئ أمرهم يحاربون مع أفراد قبيلتهم ومع من ينّضم إليهم من المتطوعة، وخصوصاً من القبائل المجاورة، وذلك

١–طمعاً بالأرض.

٢–التوسع في أملاك القبيلة الوافدة إلى بلاد الأناضول.

وكانت نساء القبيلة تساعدهم على الكر والفر أسوة بالقبائل البدوية وعاداتها. ولما استقل الغازي عثمان ١ ١٢٨١–١٣٢٦، ازدادت أملاك إمارته واتسعت، فأيقن أن ما لديه من قواعد غير كافية لا للدفاع ولا للهجوم على الأعداء. وخصوصاً أن الدولة العثمانية كانت في بداية النشوء والظروف المحيطة بها تفرض عليها إيجاد حلٍّ دائم، وأن ما لديها من **جند السباهية** *"وهم طائفة من الفرسان يقطع لهم الأراضي مقابل خدمتهم العسكرية"* غير كافية ولا تفي بالغرض فبادر السلطان عثمان إلى إنشاء فرق داعمة وهي:

١– **فرقة الأقنجي:** وهم مجموعة من الخيالة مهمتهم الهجوم على الأعداء والعودة بالغنائم والمعلومات عن خطط العدو، وعرفوا بسرعة جيادهم، وكان دافعهم للانضمام إلى فرقة الخيالة الأجر والغنيمة، والإعفاء من الضرائب.

لكن هذه الفرقة يتم استدعائها إلى الحرب كلما اقتضت الضرورة، وفي أوقات السلم يعودون لممارسة أعمالهم الزراعية. ثم عززت هذه الفرقة بفرقتين هما اليايا والمسلم.

٢- **اليايا:** وهم في الأصل مشاة، أعتمد العثمانيون في حروبهم، وتكونت عناصرهم من أبناء الأسرى واليتامى المسيحين، وفي أثناء الحرب يتقاضى الجندي الواحد نصف درهم يومياً (أقجتين)، وهم معفين من الضرائب، وبعد الحرب يعودون إلى مزارعهم وقراهم لممارسة أعمالهم الاعتيادية.

٣- **المسلم:** وهم من الخيالة ويتم جمعهم من مسلمي الأناضول والروملي، وأثناء الحرب كان يدفع لهم أجرهم بشكل يومي، وبعد الحرب يعودون لممارسة أعمالهم الزراعية.

لقد عززت هذه الفرق في عهد أورخان بعناصر قتالية جمعت من الأسرى وأبناء المسيحيين، وبلغت أعدادها في مطلع القرن السادس عشر قرابة ٢٠ ألف جندي.

ولكن السؤال المطروح : **ماذا حلَّ بهذه الفرق بعد تشكيل فرق الانكشارية؟**

فقد تم توزيعهم على الولايات، وخصوصاً إلى إقليم الروملي، وهناك منحوا إقطاعات عرفت باسم **الإقطاعات العسكرية** وهي مقسمة كالتالي:

- **التيمار:** وهو عبارة عن إقطاع صغير لا يقل وارده عن ٢٠ ألف أقجة سنوياً، وتوزع على الجند
- **زعامات:** وهي إقطاعات متوسطة الحجم، ويتراوح واردها مابين ٢٠-١٠٠ ألف أقجة، وتوزع على القواد والأمراء.
- **خاص:** ويقصد بها الإقطاعات الكبيرة، والتي يزيد واردها على ١٠٠ ألف أقجة، وتمنح للأشخاص المقربين من السلطان، وقد كان أصحاب هذه الإقطاعات يتقاضون العشر والرسوم المقررة لهم مقابل محافظتهم على الأمن وحمايتهم للمنطقة التي منحوا فيها الإقطاع، وتقديم الجنود كلما أستدعى الأمر، كحدوث حرب ضد السلطنة. ولكن بعد اتساع رقعة الدولة العثمانية، عُهد إلى هؤلاء بناء القلاع والجسور وحراستها. فكانت فرقهم (أوجاقاتهم) ذوي الاختصاص الواحد تسمى **يولداش** وتعني الرفيق، وتضم ٣٠ شخصاً، وعرف رئيسهم بـ **بك المشاة.**

ب- الانكشارية:

yani zaries، أو الينى شري، والاسم الأخير يني شري هو الاسم الأصيل لها بالتركية؛ «شري» تعني العسكر و«يني» تعني الجديد. كانت هذه الفرق الدعامة الكبرى التي ارتكز عليها التوسع العثماني في أوربة، وآسيا، وإفريقية، وبها حققت الدولة العثمانية انتصاراتها العسكرية

الحاسمة، في المعارك التي خاضتها في معظم الجبهات، والتي أذهلت الأوربيين حتى القرن الثامن عشر وهو القرن الذي ضعف فيه أمرها.

أثار هذا العسكر الجديد فضول المؤرخين، ولاسيما الغربيين منهم، ورأوا فيه أول تنظيم دقيق لفرق المشاة النظامية، أكان في أوروبا أم في الجيش العثماني. ولم تعرف أوربة فرق المشاة النظامية إلا في القرن الخامس عشر، أي بعد قرن من نشأة هذا العسكر. ولم يكن ما رآه الأوربيون هو الجديد الوحيد في ذلك العسكر، فقد رأوا أيضاً ما لم يعهدوه، في بنيته، وطرائق جمعه، وتنظيمه، ودقة عمله، وارتباطه الديني . الصوفي.

لقد كانت فكرة تشكيل الانكشارية تعود للسلطان أورخان ١٣٢٦١–١٣٦٠، وذلك عندما اقترح الأمير علاء الدين (أخو السلطان) إنشاء جند جديد يكون ولائهم للسلطان فقط، وليس لقبيلتهم أو عشيرتهم كما كان سابقاً.

وتضمنت هذه الفكرة: إنشاء جند جديد من أبناء الأسرى المسيحيين مع الفتيان اليتامى، وتربيتهم على الأساليب الإسلامية والعسكرية بموجب نظام لا يمكن تعديله إلا في ضوء المعارك العسكرية. وبذلك تضمن الدولة قوة عسكرية ناشئة تتبع بالولاء للسلطان مباشرة، ويكون لديها الجاهزية القتالية الدائمة، وبتدريبهم وإشراف السلطان عليهم لا يعرفون غيره أباً، وسوى الإسلام ديناً ً.

ومن المثير للفضول في الجيش الانكشاري ارتباطه بطريقة دينية صوفية هي الطريقة البكتاشية، فقد التحق بالأوجاق بعض كبار دراويشها، وعرف الانكشارية باسم عسكر البكتاشية وأبناء الحاج بكتاش، بل إن الدولة العثمانية أعلنت رسمياً في عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، ضم الطريقة البكتاشية إلى الأورطة التاسعة والتسعين من أورطات الجماعات، وأعطت بيرها (شيخها الأعظم) منصب الشربجي فيها. وكان عمل هؤلاء الدراويش الصلاة لنصرة الدولة والعناية بأسلحتها. وكانوا يسيرون أمام آغا الانكشارية في العروض العسكرية، مرتدين اللون الأخضر، يتقدمهم رئيسهم مردداً بأعلى صوته «كريم الله» ويلبي الآخرون من ورائه «هو».

١ – مراحل تشكيل الانكشارية:

مرت التشكيلات العسكرية الانكشارية بثلاثة مراحل هي

أ– مرحلة التأسيس.

ب– مرحلة الدفشرمه.

ج– مرحلة غلمان القصر.

أ- مرحلة التأسيس:

تكونت عناصر الانكشارية في هذه المرحلة من الأهالي وأسرى الحرب الذين تم تعليمهم اللغة والعادات والتقاليد التركية، وذلك بعد إرسالهم إلى الأسر الفلاحية التركية في الأناضول، وقسموا إلى قسمين

١- **بيادة:** وهم في الأصل من فرق اليايا المشاة،

٢- **سواري** أي الفرسان

ب- مرحلة الدفشرمة:

الدفشرمة كلمة تركية تعني الجمع أو الاختيار، وأخذت تطلق بشكل أدق على جمع الأولاد المخصصين للإنكشارية. وقد برزت في عهد السلطان مراد الأول(١٣٦٠-١٣٨٩)، حيث أخذت الدولة العثمانية بالتوسع مما جعلها في حاجة ماسة لمزيد من القوات العسكرية، فظهرت الفكرة الداعية إلى الاستفادة من الأولاد المسيحيين الذين يقعون في الأسر خلال الحرب، والذين يمكن لهم أن يعتنقوا الدين الإسلامي. وشُكل في عهد مراد الثاني ما يسمى بـ أوجاق العجم، وكان تابعاً لأوجاق الانكشارية، حيث كان الأولاد يقضون وقتهم في تعلم القراءة والكتابة والفقه الإسلامي.

وفي البداية كان الأولاد يجمعون من المناطق الحدودية للدولة العثمانية خلال إغارة القوات التركية على أراضي الأعداء، حيث كان الخُمس من الأولاد المأسورين يذهبون إلى أوجاق العجم، لذلك فقد أطلق عليهم أسم أولاد الخمس(**قانون البنجك**).

ولكن بعد معركة أنقرة ١٤٠٢ وتوقف الفتوحات التركية، انخفض عدد أولاد الخمس، لذلك ظهرت فكرة أخرى تقوم على أخذ الأولاد المسيحيين من داخل حدود الدولة، وبهذه المناسبة أصدر مراد الثاني (١٤٢٠-١٤٥١)، **قانون الدفشرمه** أي *قانون جمع الأولاد المسيحيين من رعية الدولة والذين أصبحوا يعرفون باسم أولاد الدفشرمه*.

وكان الهدف من هذا القانون تقوية الانكشارية بفيض جديد من الشباب، وقد استمر نظام الخمس معمولاً به بالتوازي مع القانون الجديد، ثم استبدل بنظام شراء هؤلاء الأولاد.

وبدا تطبيق نظام الدفشرمه في بلاد البلقان، ومعظم البلاد الأوروبية الخاضعة للسلطنة، ثم توسع هذا النظام ليشمل المسيحيين في الأناضول منذ نهاية القرن الخامس عشر. وبداية كان يتم جمع الأولاد من كل المسيحيين دون تمييز، ثم جرى الاقتصار على أقوام معينة، وبالتحديد ***الألبان، البوسنيين، اليونانيين، البلغاريين،***.

وكانت عملية الجمع هذه تجري كل خمس سنوات، أو أربع، أو ثلاث، وأحياناً كل سنة. ولكن ما لبثت أوقات التجنيد هذه أن تباعدت تدريجياً في القرن السابع عشر الميلادي، وكان آخر

أمر بالدفشرمه هو الذي صدر عن السلطان أحمد الثالث عام ١٧٠٣م ولم ينفذ. وكان عدد المسوقين يختلف من عام إلى آخر، وقد قدر بين٨٠٠٠ و ١٢٠٠٠.

وبشكل عام، إن جمع الأولاد لم يكن يتم في وقت محدد بل عند الحاجة، وكان الأولاد الذين يقع عليهم الاختيار يتراوح أعمارهم مابين ١٠-٢٥ عاماً، ويشترط عند اختيارهم أن يكونوا بصحة جيدة ، وكان هناك حرص شديد على اصطحاب أولاد العائلات المرموقة وأولاد القساوسة، لأنهم يعتبرون مؤدبين.

وجدير بالذكر أنه حتى القرن السادس عشر كان الأمراء وحكام السناجق والقضاة هم الذين يجمعون أولاد المسيحيين، ولكن نظراً لتفشي الرشوة بينهم فقد تم تحويل المهمة إلى أوجاق الإنكشارية حيث كُلف مأمور الدفشرمة بهذه المهمة، وكان هذا المأمور يحمل معه فرماناً سلطانياً، وكتاباً إلى آغا الانكشارية، ثم يخرج المأمور من اسطنبول بصحبة الكتبة ومجموعة من الحراس المسلحين جيداً، وكان يسبقه الدلالين ليعلنوا لسكان القرى عن الأوامر الداعية إلى جمع كل الآباء والأولاد في مكان وزمان محدد. وبعد جمع الشبان والغلمان يطلق عليهم اسم **القطيع** ويبقى هذا اللقب ملازما لهم حتى وصولهم إلى إستانبول.

ج- غلمان القصر:

وكان هؤلاء المجموعون عن طريق الدفشرمه يرسلون إلى العاصمة اسطنبول. حيث كان يتم تصنيفهم، فأحسنهم فكراً وجسماً يصطفى ليكون من

١ - **الإيج أوغلان**(غلمان السلطان)

أي من غلمان الخدمة الداخلية في سراي السلطان. ويُربّى هؤلاء ويُدرّبون في القصور السلطانية في بورصة، وأدرنة، أو في مدارس القصر الخاصة التي أنشأها السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) في غلطة واسطنبول والمسماة مدارس الإيج أوغلان، كانوا يُعلّمون فيها القرآن الكريم، والحديث، والفقه، واللغات التركية والعربية والفارسية، ويُدرَّسون الموسيقى وكيف يتحدثون بطريقة مثقفة ومهذبة، وإلى جانب هذا التعليم، كانوا يُدرّبون على فنون القتال، ولاسيما ركوب الخيل، ورمي النبال، وقذف الرماح. ويدرَّبون كذلك على الخدمة في سراي السلطان، وعلى فنون الإدارة والقيادة، ومنهم كانت تملأ مناصب الدولة العليا.

٢ - «العجمي أوغلان» أو الغلمان الأعاجم

أما الفريق الثاني، وهو أقل مستوى من الناحيتين الفكرية والجسمية، فقد أطلق عليه اسم «العجمي أوغلان» أو الغلمان الأعاجم. وربما سموا بهذا الاسم لجهلهم التام باللغة التركية، أو لغربتهم عن الدين الإسلامي، وهؤلاء كانوا يتلقون نوعاً آخر من التعليم، يخضعون فيه لتدريب

عسكري قاس، وصارم، ودقيق يهدف إلى تعويدهم تحمل مشاق الحرب وشدائدها فمن كان لا يعرف التركية منهم، فإنه يلحق أولاً بخدمة السباهيين الإقطاعيين في الأناضول مدة محدودة. وبعضهم كان يؤجَّر للعمل في الأرض بضع سنوات يتقن إبانها اللغة التركية، ويتشبع بالعادات الإسلامية، ثم يستدعى ثانية إلى اسطنبول.

ومن اسطنبول كان العجمي أوغلان يرسلون إلى المدارس المسماة باسمهم، في غاليبولي، وفي أدرنة. وفيها كانوا يدرَّسون أصول الإسلام، ويعطون معلومات ثقافية عامة، وفيها أيضاً، وفي المؤسسات الحربية المختلفة كالطوبخانة (دار المدفعية) والترسانة، كانوا يجرون تدريبهم العسكري التخصصي، ويتعلمون تقنية المدفع، والبندقية، واللغم واستخدام جميع أنواع الأسلحة المعروفة آنذاك، التقليدية والحديثة، وكان مصير أكثر العجمي أوغلان هو الانخراط في أوجاق الانكشارية، حيث يوزعون كل سبع سنوات على الأقسام الثلاثة فيه.

٢ – تقسيمات الانكشارية:

وكان أوجاق الانكشارية، في مرحلة تكامله قي القرن السادس عشر الميلادي يتألف من ثلاثة تشكيلات متداخلة فيما بينها وهي: السغمان (أو السكبان) والجماعات، والبُلُوك. وتتوزع تلك التنظيمات الثلاثة إلى مئة وست وتسعين وحدة. يسمى كل منها أورطة (المركز).

١ – الجماعات

وكان أكبر التنظيمات الثلاثة نصيباً من مجموع الأورطات هو تشكيل الجماعات، إذ كان مؤلفاً من ١٠١ أورطة، في حين يضم البلوك ٦١ أورطة، ويضم السغمان ٣٤ أورطة. وكانت الحاميات في الإيالات تؤخذ من أورطات الجماعات، وكانت تبقى دائماً في الأماكن والقلاع التي ترسل إليها، ولا تبدل، ولا تغادر أماكنها إلا إذا استدعاها السلطان لتحارب في بقاع أخرى، أو إذا نقلها من مواقعها لصراع حدث في بعضها.

٢ –البلوك

كان يضم الأورطات التي تكوّن حرس السلطان في أثناء اشتراكه بالقتال.

٣ –السغمان

كان في بادىء الأمر، فرقة خاصة لصيقة بالسلطان، ثم ضُمّت بعد فتح القسطنطينية إلى الجيش الانكشاري.

وقدر عدد الانكشارية في عهد السلطان سليمان القانوني باثني عشر ألفاً وارتفع هذا العدد زمن السلطان مراد الثالث في أواخر القرن السادس عشر إلى عشرين ألفاً. أما عدد أفراد الأورطة

الواحدة فقد كان في البدء لا يتجاوز الخمسين، ثم وصل في القرن الثامن عشر، وفي حالة السلم إلى مئة. ووصل في بعض الولايات إلى ٣٠٠ فرد وقد يرتفع عددهم في حالة الحرب إلى ٥٠٠.

وكانت كل أورطة تقيم في قاعة واحدة هي «الأوضة» وقد استخدم اللفظ الأخير للدلالة على الأورطة. وفي أثناء الحرب، كانت كل أورطة تقيم في خيام خاصة بها. وكان لها شعارها الخاص المرسوم على علمها، وعلى باب أوضتها، بل إن بعض الانكشارية كانوا يشمونه على أذرعهم وسيقانهم.

وكان على رأس القطعات الانكشارية الثلاث **آغا الانكشارية** (يني شري آغاسي). وكان شخصية كبيرة في الدولة، فالعسكر الجديد كله في جميع أنحاء الدولة العثمانية تحت إمرته، وهذا العسكر هو أقوى أداة عسكرية دائمة ومنظمة في يد السلطان. وكان الآغا في الوقت نفسه يعمل رئيساً للشرطة في العاصمة اسطنبول. وهو بحكم وظائفه الهامة تلك، كان عضواً في مجلس الدولة الاستشاري «ديوان همايوني»، ويتمتع برتبة وزير، ويتقدم جميع قادة الجيش العثماني، إلا في الأعياد، فيتقدم عليه قائد السباهية والبلوك سلحدار، لأن هاتين المؤسستين كانتا أقدم من مؤسسة الانكشارية. وكان على آغا الانكشارية إذا ما وقعت الحرب أن يقود الأوجاق بنفسه، إذا كان السلطان مشتركاً بالقتال. وفي هذه الحال كان يتقدمه علم أبيض، وقد حلي بالطوخ (ذيل الحصان). وهو شعار تركي، كانت تحلى به رايات الدولة، وكلما ازداد عدد الأطواخ كانت رتبة صاحب الراية أعلى، فالسلطان يسير بتسعة أطواخ مثلاً. أما إذا لم يشترك السلطان بنفسه في القتال، فإنه كان يبعث نائباً عنه ليعمل بأوامر القائد الأعلى الذي يكلفه السلطان قيادة الحملة.

كانت الأورطة الخلية أو النواة التي يتألف منها العسكر الجديد بتشكيلاته الثلاثة. وكان على رأس كل واحدة، مجموعة من القادة قد يصل عددهم إلى سبعة أو ثمانية، ولكل واحد عمل خاص، وألقاب عدد منهم ترتبط بمهمات غذائية إلا أن تلك الألقاب الطعامية لا تنفي بالطبع أنه كان لأولئك القادة أعمالهم العسكرية المهمة، فالرأس الأعلى في الأورطة، كان يطلق عليه اسم الشربجي أي صانع الحساء ورئيس المؤخرة يدعى عشي باشي أي رئيس الطباخين، وهو ضابط الأمن والسجن في الأورطة، ورمزه السكين الكبيرة. ورئيس الحرس يدعى باشي قره قولوقجو أي رئيس مساعدي الطباخ ومن يأتون دونه يدعون بـ «القرة قولوقجو» أي مساعدي الطباخ.

ويخضع أفراد العسكر الجديد خضوعاً تاماً لسلطة قادتهم، فهم الذين يفصلون في الخصومات فيما بينهم، وينزلون بهم العقوبات اللازمة، التي كانت تراوح بين السجن، والجلد بالعصا، والإعدام. ولا يجوز لأي سلطة مدنية أن تقبض على انكشاري أو تعاقبه. ويتقاضى الانكشارية إضافة إلى الطعام، مرتبات نقدية بحسب درجاتهم، وتزاد أجور من قدم منهم خدمات

متميزة، كالتطوع لأعمال فدائية مثلاً. وإلى جانب تلك المرتبات النقدية، وما كانوا يتقاضونه من علاوات عند تنصيب سلطان جديد، وفي المناسبات العامة المهمة كالأعياد مثلاً، والمناسبات السلطانية الخاصة(زواج، ولادة، ختان)، فإن الدولة كانت تقدم لهم اللباس والسلاح.

وكانوا يجردون في السلم من السلاح، ولكن كان يسمح لهم في الحرب باختيار الرماح التي تعجبهم. والأسلحة التي كانوا يستخدمونها إما أسلحة تقليدية كالسيف بأنواعه، والرمح بأنواعه، والقوس، والنبال، والحربة، والمقلاع، والسياط، والبلطة، والخنجر، والمخرطة، والمزراق، والمنجل، والدبوس، والترس، والدرع، والخوذة النحاسية أو المصنوعة من الصلب، بأنواعها وغيرها، وإما أسلحة حديثة وهي الأسلحة النارية الصغيرة كالبندقية بأنواعها الكثيرة، (منها البندقية القصيرة والطويلة، والطبنجة، وأمثالها). وقد عرف عن العسكر الجديد أنه كان متمرساً في استخدام جميع أنواع الأسلحة، ولاسيما البندقية بأنواعها.

وكان هم السلاطين الأول تركيز انتباه الانكشارية على واجباتهم الأساسية وهي الحرب، وحفظ الأمن والنظام، ولذلك منع الانكشارية الزواج والاستقرار الأسري. كما أصدرت الدولة فرماناً حرم عليهم تماماً الانخراط في صفوف المهن، وكي لا يقوم أي احتكاك بينهم وبين فئة الصناع والتجار، سعت لتوفير كل ما يلزمهم مباشرة، وألحقت بالأورطات المقيمة في العاصمة، وتلك المرسلة إلى الولايات، عدداً من الاختصاصيين بمختلف الصناعات التي يحتاجون إليها. وينقطع هؤلاء عادة عن صلتهم بأصنافهم (نقاباتهم) الأصلية، ويكوّنون أخرى تحت لواء الأوجاق. ومع أنهم ليسوا جزءاً من بنية الأوجاق، فإنهم تمتعوا على ما يبدو، ببعض امتيازات أعضائه، كمنع توقيفهم أو معاقبتهم من قبل السلطات المدنية.

وخلاصة القول، أن المصادر الأوربية والإسلامية أجمعت، على أن العسكر الجديد كان قوام الجيش العثماني وعماده، وكان متفوقاً على أي جيش معروف في القرن السادس عشر بتنظيمه الدقيق، وتمرس جنوده باستخدام جميع أنواع الأسلحة المعروفة في عصره، ومهارتهم بصفة خاصة في الرمي بالأسلحة النارية الحديثة، وصبرهم على المشاق وشجاعتهم.

٣- فساد الإنكشارية وإلغاءها

لحق الفساد بهذا العسكر وكان هذا عاملاً رئيساً في ضعف الدولة العثمانية المتدرج. وتبدى هذا الفساد في مظاهر كثيرة قد يكون من أبرزها وأخطرها مظهران:

الأول: طغيان جند هذا العسكر وبغيهم، وإساءاتهم إلى السكان المدنيين في العاصمة والولايات، واستغلالهم أي مناسبة للسلب والنهب، وفرض ضرائب جديدة واقتحام البيوت، وهتك الأعراض،

والاستيلاء على الأرض ومحاصيلها، حتى على الأوقاف، بكل الوسائل غير المشروعة، ولاسيما في الولايات.

الثاني: تمرد هذا العسكر وثوراته المستمرة على الدولة والسلطان، في العاصمة والولايات، ومن ثم تسلطه على شؤون السلطنة. فقد عمل على خلع السلاطين وقتلهم، والإتيان بغيرهم، والتمرد على أوامرهم، وكذلك فعل بكبار رجال الدولة، كالصدر الأعظم، والمفتي، والدفتردار، والوالي وغيرهم، والمتتبع لتاريخ الدولة العثمانية منذ مطلع القرن السادس عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، يرى أنه لم يخل عهد أي سلطان مهما عرف بقوته، وحزمه، من تمرد انكشاري. فهم على سبيل المثال لا الحصر، كانوا وراء خلع السلطان بيازيد الثاني وتولي السلطان سليم الأول، ومع ذلك رفضوا التقدم معه شرقاً بعد معركة جلديران التي انتصر فيها السلطان سليم على الشاه إسماعيل الصفوي (١٥٤١م) وهم الذين خلعوا السلطان عثمان الثاني وقتلوه، وكذلك فعلوا بإبراهيم الأول، وسليم الثالث ومصطفى الرابع وسليمان الثالث وأحمد الثالث وغيرهم. وهم الذين قتلوا الصدور الأعاظم في عهد مراد الرابع والأمر ذاته يلاحظ في الولايات، فتحركات الانكشارية وفتنهم غطت كل الحياة السياسية فيها.

أما أسباب فساد الجيش الانكشاري فهي كثيرة، بعضها اقتصادي، وبعضها نفسي، وبعضها إداري وسياسي، وقد يكون من أهمها:

١- شعور هذا العسكر بقوته ونفوذه، وبأنه عماد الجيش العثماني من دون منازع، ولاسيما بعد ضعف الفرق الإقطاعية. فتنمر هذا العسكر وتجرأ على الدولة والسلطان بتدخلاته السياسية ومطالبه الكثيرة.

٢- تلكؤ الفتوحات العثمانية النسبي منذ النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مما قلل من غنائم العسكر الانكشاري الحربية من ناحية، ومن فرص انصرافه إلى الحرب والقتال اللذين رَبيَ عليهما ولهما من ناحية ثانية.

٣- الأزمات الاقتصادية التي كانت تصيب الدولة بين حين وآخر، سواء أكانت خاصة بها، أم ذات منشأ عالمي، مما كان يضعف دخلها، فتتأخر في تسليم رواتب الجند، أو تخفض من قيمة النقد، فيلحق السوء بالجند الانكشاري، الذي يتقاضى أجوره نقداً. ومن ثم كان يسعى بكل الوسائل لسد حاجاته الاقتصادية بالسلب والنهب وابتزاز الأهالي والتسلط والثورة.

٤- . التفكك الذي أصاب بنيته الأولى الناجم بصفة خاصة عن الخلل في نظام الدفشرمه وما يتبعه من تربية عسكرية نموذجية، فآباء الغلمان النصارى أخذوا يفتدون أولادهم

بشتى السبل، فأخذ يدخل في الجيش عناصر متنوعة، وكلها كانت تلحق بالأورطات مباشرة، من دون أن تخضع للتدريب والتعليم المشار إليهما آنفاً. وقد لجأ بعض السلاطين أنفسهم إلى هذا الحل، ليزيدوا من عدد الجند، لحاجتهم القتالية من ناحية، وليخففوا من غلواء الانكشارية، وهذا ما فعله السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م)، حتى إن عدد الانكشارية في نهاية عهده تضاعف تقريباً، وهذا ما أثقل على الخزينة، مما دفع الدولة إلى تخفيض قيمة النقد الفضي، الذي هبطت قيمته أيضاً من تدفق الفضة من القارة الأمريكية، مما أدى إلى تدني قيمة مخصصات الجند، وكان هذا عاملاً رئيساً في ثوراتهم المتكررة. ولما جاء السلطان مراد الرابع (١٦٢٣- ١٦٤٠م) أوقف نظام الدفشرمه. ومع أن الدولة عادت إليه بعد ذلك، فإنه تضاءل تدريجياً حتى زال تماماً في مطلع القرن الثامن عشر. ولم يعد يقبل في العسكر الانكشاري إلا مسلمون أحرار.

وقد تمرد الجند الانكشاريون على أمرين مهمين كانا من عوامل بأس هذا العسكر، فألغوهما، وهما: عدم الزواج، وعدم السماح بممارسة أعمال الصناعة والتجارة. وهكذا لم يعد الانكشارية يعيشون في ثكناتهم وهمهم القتال، وإنما انصرفوا إلى أعمال التجارة والصناعة ليزيدوا من دخلهم، وليملؤوا أوقات فراغهم. وأخذ المتنفذون في الدولة يدخلون خدمهم وأتباعهم في هذا العسكر ليستفيدوا من امتيازاته، وقد أحلّوهم محل أفراد قادرين على القتال، بعد أن أحيلوا على التقاعد ليأخذ هؤلاء أماكنهم. ولم تلبث الدولة نفسها، لحاجتها في حروبها إلى مزيد من الجند، أن أدخلت في هذا العسكر عناصر لا تدفع لهم أجوراً إلا في حال الحرب. وقد رضي هؤلاء بوضعهم هذا لاستفادتهم من الامتيازات الأخرى للانكشارية، كما رضي به الانكشارية أنفسهم، لأن هذا يزيد من عددهم ويجعلهم أشد بأساً وقدرة على فرض إرادتهم على الدولة.

وأمام ذلك الفساد، وما أوجده من تبلبل في حياة الدولة، وما سببه من هزائم عسكرية لها أمام القوى الأوربية، قرر السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) إصلاح الجيش العثماني، والتخلص من تحكم الانكشارية بإدخال ما سمي النظام الجديد أي إعادة تنظيم الفرق العسكرية العثمانية، وتطوير أسلحتها، وتدريبها على النمط الأوربي الحديث. وخشي الانكشارية من هذا الإصلاح على وجودهم، فثاروا وخلعوا السلطان وقتلوه، وأتبعوه بمصطفى الرابع. ولمّا أظهر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) تصميمه القاطع على إدخال النظام الجديد، تصدى له الانكشارية مرة أخرى، إلا أن السلطان استعان بالقوات العسكرية المؤمنة بالإصلاح، وبالسلطات الدينية وبالشعب ذاته، ولاسيما بعد أن أشعل الانكشارية النار في العاصمة، وسلبوا ونهبوا،

فحاصرهم في ثكناتهم في اسطنبول، وضربهم بالمدفعية في «**الوقعة الخيرية**» كما سميت، وذلك في١٦ حزيران ١٨٢٦م، فقتل منهم الكثير. وأصدر السلطان فرماناً بإلغاء الفيالق الانكشارية إلغاءً كلياً، وإنشاء جيش جديد وفق النظم الأوربية الحديثة وأتبعه بفرمان آخر حل به الطريقة البكتاشية، وأمر بهدم تكاياها، لأنها كانت عوناً لهم.

ج- الأسطول:

إن الدولة العثمانية منذ بداية تأسيسها لم تكن أراضيها متاخمة للبحار، حتى أن العثمانيون لم يرثوا علم البحار عن أجدادهم ولم يكونوا على دراية دقيقة بأسراره، ومن المرجح أن تفوقهم العسكري يعود إلى :

١- رغبتهم بمواجهة الأحداث التي فُرضت عليهم.

٢- تحديات السفن العائدة للبحارة البنادقة هي التي خلقت عند العثمانيين حافزاً للاهتمام بالأسطول.

٣- طول السواحل وقلة حماية الثغور واصطدام العثمانيين بالقوى المعادية لهم على شواطئ البحر المتوسط وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي.

إذا كان السلطان مراد الأول هو المؤسس الحقيقي للأسطول العثماني، فهذا راجع بدوره لسيطرته على الروملي في البلقان، ونقله ملكه إلى أدرنة الأوربية، والتي أصبحت الدولة العثمانية. وهذا بدوره مهدَّ لإعداد الجندي العثماني البحري وساعد على ذلك وجود الأسرى المسيحيين الذين يمتلكون خبرات بحرية واسعة، وبفضل المميزات التي منحت لهم، قاموا بتدريب الكثير من الجنود العثمانيين على الإبحار وتعلم الطرق العسكرية لمجابهة السفن المعادية. وأيضاً إقامته لدار الصناعة الخاصة بالسفن "**الترسخانه**" في غاليبولي وأزمير. حتى أنه أقام في الأولى ثكنة بحرية ونقل إليها فرق من التشكيلات العسكرية الخاصة بالانكشارية ليتم تدريبها على أيدي البحارة المسيحيين الذين تم أسرهم.

وفي عهد السلطان بيازيد الأول(١٣٨٩-١٤٠٢) تم تعزيز الأسطول العثماني بعناصر متمرسة من الأسرى المسيحيين وتم توسيع ميناء غاليبولي حتى أصبح يتسع لـ سبعين سفينة. ولكن هذا الأسطول تعرض للإحراق أواخر عهد محمود الثاني.

ومع استلام السلطان محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١) شهد الأسطول العثماني تطوراً جدياً لأنه أدرك أن قوة الدولة لا تكتمل إلا بوجود قوة بحرية تساعد القوات البرية. فضلاً عن أن وجود القوة البحرية تساعده على تحقيق أهدافه المتمثلة في:

السيطرة على مدينة القسطنطينية المحاطة بالبحار من معظم جهاتها. لذا بادر بداية إلى جمع أصحاب الكفاءات والخبرات سعياً لإنشاء أسطول بحري. وبعد تمكنه من إعداد أسطول يزيد عدد قطعه على ٤٢٠ قطعة بحرية، استطاع السيطرة على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، ثم وجه أنظاره إلى البحار المحيطة بدولته حيث:

١. استطاع الاستيلاء على معظم جزر بحر إيجة وأتى برجال البحر المتواجدين في هذه الجزر وطلب إعداد أسطول يمكنه من السيطرة على المناطق المطلة على البحر الأسود والمتوسط.
٢. وبعد اكتمال بناء أسطوله، لاحق ثغور الجنونيين والبنادقة البحرية، وبسيطرته على تلك الثغور البحرية غدا البحر الأسود بحيرة عثمانية.
٣. وبعد سيطرته على البحر الأسود توجه أسطوله لمحاربة البنادقة في عقر دارهم، فاستولى على جزيرة ***نجربونت*** المركز الرئيسي للبنادقة في جزر الأرخبيل، أيضاً استولى على مرفأ ***أوترانتو*** في جنوب إيطاليا، وأطلق يد أسطوله في ضرب السواحل الإسبانية والإيطالية.

وبالتالي يمكن أن نعد السلطان محمد الثاني(الفاتح) باني البحرية العثمانية الحقيقي.

وكانت السياسة التي اتبعها السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦) وكُبر طموحاته، السبب الذي جعل الأسطول يشكل عماد توسعاته حيث زاد عدد سفن الأسطول حتى بلغت ٣٠٠ سفينة حربية، وذلك بفضل الأموال الضخمة التي أنفقها من أجل ذلك.

وتمكن هذا الأسطول عام ١٥٢٢ من السيطرة على جزيرة رودوس، وفي عام ١٥٥١ كلفه السلطان بطرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب. وبعد ذلك هاجم السواحل الإيطالية والإسبانية.

وبالتالي ففي عهد سليمان القانوني غدا الأسطول العثماني سيد البحار وخصوصاً بعدما وفق السلطان بأمير البحر ***خير الدين برباروسا*** والذي طوره وتولى قيادته، وأينما حل حمل معه الهول والذعر، وبشكل خاص على سواحل وشواطئ الدول الأوربية على المتوسط.

إلا أن الأسطول العثماني قد تعرض أواخر عهد السلطان القانوني إلى كارثتين كبيرتين هما:

١. فشله أمام أسوار مالطة سنة ١٥٦٥ حيث تعرض للتدمير الكامل، إلا أن القبطان قلج علي ورفاقه تمكنوا خلال فترة قصيرة نسبياً من إعادة بناءه، وكلف عام ١٥٧٠

بالسيطرة على جزيرة قبرص وأخذها من يد البنادقة، ولكن كردٍّ فعل على ذلك حدثت الكارثة الثانية.

٢. حيث تم إقامة تحالف ضد هذا الأسطول ضم كلٍّ من البابا والبنادقة والأسبان والنمسا وفرسان مالطه، حيث تمكن هذا التحالف البحري من تحطيم الأسطول العثماني في ***معركة ليبانتو*** ١٥٧١، وحدث ذلك في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤)، والذي يعد عهده بداية الضعف العثماني.

ويعود السبب في ضعف الأسطول العثماني إلى الفساد الذي لحق بالإنكشارية، والفساد العام الذي حل بالدولة العثمانية، ووصل إلى أمراء البحر وعماله، فصار هؤلاء لا يهمهم من إنشاء السفن إلا الاختلاس والرشوة وتحقيق المكاسب المادية.

واستمر الأسطول يتوارث الضعف حتى عام ١٨٢٦ عندما تم إبادة الأسطول العثماني وسحقه على يد السفن الأوربية الإنكليزية والفرنسية في موقعة ***نفارينو*** اليونانية.